

الفصل العاشر

رأس الطب النفسى فى متعاطى الخمر ودوافعه للتعاطى، وفيما إذا كان من الممكن أن يكون للمتعاظم إنتاج فكوى كإنتاج الخيام فى الرياضيات والفلسفة والآدب

منهجنا فى هذا الفصل أن نعتبر الرباعيات بمثابة صحيفة لدراسة حالة من الحالات المرضية التى يتوفر عليها الطب النفسى، بافتراض أن عمر الخيام مريض بالإدمان الكحولى، وهو ماتوحى به فعلاً الرباعيات التى اصطلحنا على وصفها بالإباحية، حيث يظهر فيها الخيام تكالباً على معاقرة الخمر، ويبدو داعياً إلى تناولها، كما لو كان يدعو إلى مذهب من المذاهب التى مدارها سلوكيات معينة وأسلوب فى معايشة الحياة.

والإدمان الكحولى اضطراب نفسى مرضى له أسبابه من شخصية المدمن نفسه، ومن بيئته التى تدفعه إلى تعاطى الخمر، ومن تكوينه البيولوجى وواقعه الثقافى والاقتصادى. والإدمان الذى صار إليه الخيام تشرحه الرباعيات بأنه معاودة دائبة على تعاطى الخمر حتى ليتعاطاها صباحاً ومساءً، وظهراً وعصراً، ولا يؤثر لتعاطيها وقتاً على وقت، وأقصى ما يطمناه أن يداوم على شربها فلا يضييق أبداً.

ويبرر هذا الإلحاح على تعاطيها بأنه يريد أن ينسى همومه، والخمر تريحه ولهذا أطلقوا عليها اسم الراح. ويزيد الشرح فى أسباب التعاطى بأنه لا يريد إلا أن يطرب ويبتهج، ولا يقصد أن يسيء الآدب مع الله الذى حرّمها.

ويسترسل فى تعمق أسبابه بأنه قضى عمره فى التفلسف لعله يفهم سر القضاء والقدر والموت والشر فلم يلحقه من التفكير إلا ضياع العمر، ولم يخرج بنتيجة. وكان إحساسه بالإحباط شديداً، واليأس الذى ألمّ به خانقاً حتى أنه فكر فى الانتحار، ولم ينقذه من تحقيق فكرته إلا إيمانه بالله.

ويطرح أسئلة كثيرة على نفسه عن أسباب سوء توزيع الثروة فى الدنيا، وظلم الناس لبعضهم البعض، وتفشى الجهل، وانتشار الفقر والمرض.

ويقول إنه لو استمر على صحوه فستظل الأسئلة تلح عليه، وليس من سبيل للتخلص من إلحاحها إلا بالسُّكْر. ويتساءل لماذا لا يسكر وقد وُعِدنا الخمر كثواب في الجنة، فلماذا لا نبدأ بشربها من الحين؟ ويمتدحها كعلاج لحالته، وكعقار سحري يستجلب السعادة.

ويشرح طريقته في تناولها فيقول إن الخمر من دأبها أن تجلو معدن الشارب، وهو إذ يشربها لا يُعربِد، وأثرها فيه محدود، ووعيُه يظل على حاله، ولا ينتابه منها إلا رعشة يلاحظها في يديه وهو يمسك بالكأس.

ويلخص ما يتمناه في حياته فيقول إنه يتمنى زجاجة خمر وكتاب شعر ووجه الحبيبة الصبوح ورغيف خبز، ولا يهم بعد ذلك إن كان يسكن القصر أو القفر.

وينصح الراغبين مثله في تعاطي الخمر أن يكون تناولهم لها في الخفاء، وأن يختاروا جلساءهم من خفاف الظل المُتَرَفِّين المُتَوَقِّدين ذكاء.

ويقول إن لمجلس الخمر آداباً، ويقارن بين طرائق الناس في الشرب ويعلن أنه يؤثر طريقة القلندرية، ويخص منهم من يسميهم قلندرية العائات، ويحصر ملذاتهم في ثلاثة: الخمر والسماع والحبيب.

ذلك كان موجز طريقة الخيام في التعاطي، ووافقه إليه. والقلندرية الذين يقصدهم كانوا طائفة من الصوفية، قيل كانوا من الملامتية، تركوا العادات، وأهملوا التقيد بتقاليد المجالس والمعاملات، ولم يُجيزوا الزيادة في الفرائض، ولم يحرموا أنفسهم من المُلذات المباحة، وألزموا أنفسهم الزهد في الدنيا وحطامها، وأن لا يدخروا، ولم يببالغوا في نفس الوقت في التمسيد والتزهد، ولم يُظهروا تعبدهم للناس، وأثروا أن يُحسَبوا من الفسَّاق، ولم يكن يعينهم إلا أن يُصَفِّوا قلوبهم مع الله.

والقلندرية العائات اسم لانصافه إلا في رباعيات الخيام، وكاننا قصد واضعه الابتداع، وأن يقول بطريقة جديدة من طرق القلندرية أو الملامتية، تبيح الخمر، وتجزئ السماع من رقص وموسيقى وغناء.

ولا يعيننا في هذا الفصل إلا تأثير الخمر في المتعاطي، وصحة تعاطي الخيام للخمر. واحتكامنا للطب النفسي يتيح لنا أن نحكم في قضية إيمان الخيام للخمر من عدمه.

والمدمن باتفاق آراء العلماء هو الذي يتعاطي الخمر لعدد من المرات في الأسبوع لا يقل عن ثلاث وإلا فهو مجرد معتاد، وقيل هو الذي يشرب بأزيد مما يقضى به العُرف في الشرب في هذا البلد دون ذلك.

والإدمان درجات، فمنه العادى، ومنه المزمن، والإدمان النفسى هو الذى تكون له دوافع نفسية، يعكس الإدمان العضوى الذى أسبابه خلل فى التكوين العضوى للمدمن.
والمدمن لا يدمن مباشرة ولكن على مراحل، ويستغرق ذلك وقتاً، فهو أولاً يتواجد فى مجالس خمر، فيلاحظ الشاربين ويُعديه سلوكهم، أو يقدم لهم لتبعيته لهم، ويتنوق الخمر مازحاً أو مجاملاً فيكتشف فيها وسيلة للهروب من الهموم، فيعتاد شربها حتى الإدمان.
ويعانى المدمن من اضطراب الشخصية وطريقته فى تعاطى الخمر تكشف نمط شخصيته. والخمر من طبيعتها أنها تُظهر ما يميز به الشارب من طباع بشكل مبالغ فيها. والإفراط فى التعاطى قد يصيب الشارب بحالة من الزهو والنشوة، وقد يلحقه من التعاطى الاكتئاب حتى ليبيكى.

والخمر وسيلة للتنفيس عن الدوافع المكبوتة، لأنها ترفع الكف وتزيل القمع اللذين يحولان نون إظهار المشاعر والرغبات المحظورة، فيتصرف المخمور بحرية أكثر، ويلاحظ عليه أيضاً صعوبة سيطرته على حركاته وكلامه وتفكيره، ويفسد حكمه على الأمور، ويفقد القدرة على ضبط انفعالاته، ويضطرب تقديره لنفسه، وتتكون لديه صورة عن نفسه غير واقعية، ويهمل نفسه فتسوء عاداته وتغذيته، وتتسخ ملابسه، وتتبدل مشاعره، ويقيم استبصاره.
وأثبتت الدراسات على المدمنين من مختلف الطبقات، أن الخمر لا يقبل على تعاطيها إلا أشخاص بعينهم، من بيئات معينة متدنية اقتصادياً وثقافياً ودينياً، وكانت نشأتهم فى أوساط تسمح بالتعاطى، ولديهم استعداد فطرى وربما وراثى لأن يتعاطوا الخمر، ربما مرجعه نقص فى بعض الأنزيمات يجعلهم لا يستفيدون مما يُقدم لهم من غذاء، فيعوضون ماتحتاجه أنسجتهم بتعاطى الكحول.

ويقول المحللون النفسيون إن المدمن له شخصية تابعة، وكانت نشأته فى أسرة مسيطرة، ولم يجد الإشباع من حنان الأم، ولم يرضع كفايته من ثديها، ولذلك هو يعوض عن حاجاته من المرحلة القمية بالشرب المستمر، ويعوض أيضاً عن لبن الأم بالكحول.
وقد يكون الإقبال على الخمر وسيلة لاستعادة الشعور بالأهمية والقدرة المطلقة اللتين كانتا للمدمن وهو طفل، أو وسيلة للتنفيس عن ميول عدوانية نحو عالم كل ما فيه يستولد الإحباط، فإذا استحكم السكر به أصاب نفسه بالأذى أو توجّه به لغيره.
وقد يجد فى السكر طريقة للتنفيس عن ماسوشيته، باعتبار السكر عقاباً ينزله بنفسه، ويرتّب عليه شعوره بالذنب، واستحقاقه للتوبيخ من الآخرين. وقد تكون له دوافع جنسية

غيرية أو مثلية مكبوته فالسُّكْر يظهرها وينفَس عنها .

والمدمن لايجترىء على الشريعة أو الجلال والحرام لأنه سَكِير، ولكنه يسكر ليكتسب الجراًة التي بها يستطيع أن يواجه المعارضين عليه.

وقد يكون المدمن من النمط المكتئب الذي لا يظهر عليه اكتنابه، ولذلك ينشد أن يتعاطى شيئاً من الخمر لعله به يدفع عن نفسه الاكتئاب.

وعلى أى الأحوال، ومهما كانت الدوافع للإدمان فإن الدراسات عليه تجمع على أن الكحول مهدىء وخافض للقلق. والمدمن بالتعاطى يعزل نفسه عن المجتمع، ويتناسى به مشاكله وأسباب فشله. كما أن الدراسات قد أجمعت كذلك على أن المدمن يعاني من الصراعات التي تمزق شخصيته وتفتتها.

ذلك كان تشخيص الإدمان - فكيف نرى الخيام فى إطار هذه الصورة؟

أولاً: لم تكن فى حياة الخيام ضغوط اقتصادية أو عوامل بيئية ثقافية منحة تدفع به إلى الإدمان، فكان تعليمه على يد أشهر معلم فى نيسابور وهو الإمام الموفق النيسابورى، وكان زميله فى الدراسة الوزير نظام الملك ابن الموسرين، وكانت النخبة من أولاد الطبقة العليا هم الذين يزحمون على التلقى على الإمام النيسابورى. ولا أعتقد أن الوسط الذى نشأ فيه الخيام وترعرع كان محروماً، أو متدنى التعليم، أو مهتز القيم، أو ينقصه التدن، أو يسمح بتعاطى الخمر.

ثانياً: ولم يثبت أن الخيام تزوج وأنجب، ولذلك لم تكن فى حياته ضغوط عائلية تدفع به إلى الهرب منها وتناسيها بتعاطى الخمر.

ثالثاً: وهناك من الدلائل أن الخيام كان قوى الشخصية، وكانت نشأته نشأة سوية، فلم يكن يعاني من حرمان فى الطفولة يمكن أن يعوض عنه فى الرشد بتعاطى الخمر، وكانت حياته ناجحة، وحقق ذاته فى المجال العلمى، وكانت له إبداعات، ولم يكن هناك مايجطه يلجأ إلى النكوص ليرتد إلى زمن الطفولة لاستعادة الشعور بالأهمية ويأته قادر على فعل مالم يقدر على فعله وهو رجل. وسارت حياته سوية فلم تكن له مشاكل مع الأسرة أو مع السلطة أو مع زملائه. ولم يذكر أى من مؤرخيه أنه عدوانى أو كان يسعى إلى التفتيس عن عدوانيته المكبوته بتعاطى الخمر.

وأخيراً: أن الخمر قد ثبت أنها تزيل الكف وترفع الحياء وتكشف المستور من شخصية الشارب، وتفسد الحكم والسيطرة على الحركات والانفعالات. وكان الخيام حتى آخر يوم فى

حياته الفيلسوف والصوفى حتى النخاع، بينما عكست الرباعيات المنحلة هذا التدهور فى الشخصية عند واضعها. وبعض هذه الرباعيات كان غثاً شديداً التفاهة ودليلاً على اضطراب فى إبداعية وحكم مؤلفها الحقيقى.

خامساً: تشيد الرباعيات المنحلة بأصحاب السوء وتثبت تأثيرهم الهابط على مؤلفها، وكان بالمناخ العام فى نيسابور الكثير من المثالب الدينية. والخيام كما يذكر مؤرخوه كان مقرباً من السلطان ملكشاه، وكان الخاقان شمس الملوك فى بخارى يعظمه ويجلسه معه على سريره، وكان التعاطى يكاد يكون هو القاعدة فى دوائر هؤلاء الحكام، وكان أهل الفكر يُضطرون إلى منادمتهم ومجاراتهم فى الشرب. وتكاد تكون هذه هى النقطة الوحيدة المؤيدة لاحتمال أن يكون الخيام قد تردى فى هذا الزلل كما تقول الدكتورة مريم زهيرى.

سادساً: ولم يثبت أن الخيام تدهورت شخصيته وأصيب بأى من الاضطرابات العقلية التى يُصاب بها المدمنون للخمر، كالهذيان الارتعاشى أو عَرَض كورساكوف. كما لم يثبت أن تاريخه المرضى فيه أى من الاضطرابات المصاحبة للإدمان، كالتسمم الكحولى أو الهلاس الكحولى أو التدهور الكحولى.

سابعاً: وتشيد قصة وصية نظام الملك - التى ذكر فيها عن الخيام وعن زميلهما الآخر حسن الصباح - بأخلاق الخيام، وتثبت أنه لم تكن له مشاكل فى طفولته كالتى كانت لحسن الصباح أو لنظام الملك نفسه. ولم تكن صورته عن نفسه غير واقعية فيطلب أن يكون فى الوزارة كما فعل ابن الصباح، وكذلك لم يهمل نفسه، ولم يحدث أن أصيب استتبصاره بالغميم. ورغم بلوغه سن الشيخوخة (قيل إنه مات عن ٨٥ سنة) فإن قواه العقلية ظلت سليمة، ولو كان من المدمنين لأسرع الإدمان باتلاف المخ والجهاز العصبى وبكرت به الشيخوخة وأعراضها.

ثامناً: أن الاعتذار بأن الخيام كان من الذكاء بحيث يدرك أضرار الخمر فلا يقربها، مردود عليه بأن ابن سينا والفارابى وكانا من كبار الفلاسفة - كانا يتعاطيان الخمر، حتى أن ابن سينا - كما قيل - مات متأثراً بها ومن داء القولنج، وأشاد بها الفارابى أسلوباً لحياته كما فى هذه الأبيات التى اشتهرت عنه :

بزجاجتين قطعت عمرى * وعليهما حولت امرى

فزجاجة ملئت بحبر * وزجاجة ملئت بخمر

فبذى أنون حكمتى * وبذى أزيل هموم صدرى

ومع ذلك فابن سينا والفارابى لم يلقبا بحجة الحق والإمام كما لُقّب الخيام. والاحتمال أقوى

إذن أن الخيام لم يسلك سلوكهما. وأنه استحق عن جدارة هذين اللقبين، ولم يتأثر إنتاجه الفكرى فظل متماسكاً عقلياً ووجدانياً، وظل احترام تلاميذه له قائماً. وحكى مؤرخوه أنه عندما جاءت الوفاة كان يتأمل أصعب كتب ابن سينا وهو كتاب الشفاء ، وأنه كان يقرأ فى قسم الإلهيات، وأنه صلى، وكان صامتاً إلا من عبارته الرائعة التى تثبت له العرفانية بالله. فكيف يكون إذن مدمناً؟ وكيف تنسب له الرباعيات المنحلة - وهذه صفاته وسلوكه وتاريخه الصحى والفكرى؟

الذى لاشك فيه إذن أن الرباعيات المنحلة منحولة عليه، ولم يكتبها، وليس صاحبها هو عمر الخيام الذى نعرفه، وإنما هى مجموعة منظومات شعرية تافهة وركيكة النظم والبناء من وُضِع مُجَان العصر، وريثة تراث أبى نواس وعصابة المُجَان التى أسلفنا القول عنها.
